ثقافة الحجّ بين أصلها وتطبيقاتها

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ 2008/11/28م

الحج عبادة جعلها الله سبحانه وتعالى فريضة على العبد في العمر مرة، لأنها بشموليتها ورمزيتها وثقافتها جامعةٌ لما تحتاجه الأمة لبنائها الاجتماعيّ، والعلميّ، والاقتصاديّ، والخلقيّ...

وحينما لا يكون الإنسان قادرًا على السير إلى هناك (مركزِ عبادةِ الحجّ المكانيّ) فإنه مُطالَبٌ بثقافة الحجّ في الحدّ الأدنى، والذي لا يستطيع ببدنه أن يذهب إلى هناك يبقى مطالبًا أن يكون حاضرًا في سلوكه وحركته وأسلوب تفكيره مع ثقافة الحج.

وفي القرآن سورةٌ سماها الله سبحانه وتعالى سورة الحج، ونبّهنا من خلالها أو من خلال بعض آياتها إلى المفردات الكبرى والخطوط العريضة من ثقافة الحج هذه، قال تعالى:

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } [الحج: 25-29].

وإذا كانت ثقافة الحج ثقافةً لكل مسلم سارٍ ببدنه إلى البيت العتيق، أو قرأ القرآن و لم يستطع أن يكون ببدنه عند البيت العتيق، فإن واقع المسلمين يعكس إذًا فهمهم لثقافة الحج أو بُعدهم عن هذه الثقافة، فيكون الحاجّ الذي فهم مقاصد الحج مُعايشًا ببدنه وروحه لهذه الثقافة، ويكون المسلم في كل مكان معايشًا بروحه وعقله وقلبه لها.

إذًا: حينما نتعرف إلى الأصول والخطوط العريضة الكبرى التي يشير القرآن إليها، ثم بعد ذلك ننظر إلى واقع الحجّ الحاضر وننتقل منه إلى واقع المسلمين العامّ، ندرك بعد ذلك هل نعيش فعلاً ثقافة الحجّ أو أننا نفهم الحجّ حركات وممارسات فقط؟

واسمحوا لي أن أتحدَّث عن بعض الخطوط الكبرى، وأوجزها بعناوين عشرة:

1- جعل الله سبحانه وتعالى مساحةً تدريبيةً كبيرة أسماها الحرم لتكون نموذج الإسلام ونموذج الأمان والسلام، وحرّم فيها الظلم، بل حرّم نيّة الظلم فيها، فقال: { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ } فكان المنع والنهي للإرادة، وما حاسب الله سبحانه وتعالى على النية والإرادة إلاّ في هذه المساحة، لأن الداخل إليها بروحه أو ببدنه يعيش نموذج الحياة الإسلامية الحقيقية.

والإلحادُ: الميل، فإذا أراد الميل عن الصراط المستقيم بالظلم الذي هو الإسلام بكل ما فيه: { نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } .

بل لقد حظيت الحيوانات بنصيب كبير من الأمان والسلام في هذه المساحة، وذلك حينما أصبح الصيد في هذه المساحة محرَّمًا، وهي مساحة جغرافية كبيرة جدًّا تتسع لخلق كثير، تبعد عن مركز مكة أحيانًا ما يزيد على /10كم/ (أو 13كم)، فهي مساحة كبيرة، أي دائرة قطرها يقترب من /30كم/.

وبعد أن هيّأ هذه الواحة العالمية الإنسانية التي فيها يتجمع الأمان والسلام، ويُرى فيها كيف أن الإسلام يهيئ للسلم، ويهيئ للأمان، ويهيئ للرحمة، وينبذ العدوان... يأتي أمر آخر في العنوان الثاني وهو:

2- المساواة الإنسانية القومية والعرقية والإقليمية في كل الحقوق في تلك المساحة: فلا يتميز عربيٌّ في تلك المساحة بالحقوق على أعجميّ، ولا مَن يسكن في دول الشمال على مَن يسكن في دول الجنوب، ولا مَن كانت بشرته بيضاء على من كانت بشرته سوداء، ولا يتميز بالحقوق (بحسب التشريع الربانيّ) مَن كان مقيمًا في تلك البلاد أو كان في أقصى الشمال أو الجنوب من الكرة الأرضية... فهذه مساحةٌ الكلُّ فيها سواء في جميع الحقوق من غير أي تمييز، قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ } أي المقيمون والمقدِمون عليه.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يأمر في موسم الحجّ بقلع أبواب دور مكة حتى يدخلها الذي يقدم فينزل حيث شاء، وكانت الفساطيط تضرب في الدور، أيْ من أراد أن يدخل إلى دارٍ في دور مكة في زمن عمر رضي الله عنه في وقت موسم الحجّ يدخل إلى أيِّ دار وينصب فيها خيمته وينصب فيها غطاء له من غير أن يسأله سائل.

وهذا الإمام أحمد بن حنبل (وهو آخر الأئمة الأربعة المجتهدين) بعد أن رأى الخلاف بين المجتهدين في قضية مُلكية دُور مكة: هل يجوز أن تملك أو لا يجوز - على الخلاف بين الأئمة الثلاثة رضي الله عنهم: أبي حنيفة والشافعي ومالك - خرج بعد دراسة طويلة بحكم فقهيٍّ قال فيه: **(إنما يمكن أن تملك وتورث ولا يجوز أن تؤجّر)** فلا يجوز أن يُؤخذ على الإقامة في مكة أجرٌ مهما كلَّف الأمر.

هذا ما خرج به الإمام أحمد بعد دراسة مطوَّلة للمذاهب الثلاثة ولأقوال العلماء، لأنه فهم أن هذه المساحة مساحةٌ يتساوى فيها الجميع ولا ينبغي أن تستغل ولا أن يكون فيها الابتزاز من أي وجه من الوجوه.

3- التوجه بالباطن والإرادة إلى الله تعالى وحده: بأن يكون المقصود الله وحده لا شريك له، وأن يكون الانقياد السلوكيّ بالطاعة والامتثال لله سبحانه وتعالى وحده.

قال تعالى: { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا } أي لا تتوجه بباطنك إلى غير الله.

{ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } حتى تكون العبادة لله تعالى وحده.

4- **انطلاق الدعوة إلى كل الناس:** وعنوانها: { وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ } ومفاد هذه الثقافة نداءٌ عالميٌّ يقول: أيتها البشرية الضائعة الحائرة وحِّدي القبلة بالتوجه إلى الله تعالى وحده، وبالطاعة له وحده.

فهو نداء يتوجه إلى العالم كله ويقول له: توجه إلى الله وحده بدلاً من أن تتوجه إلى الأهواء والمصالح، واجعل انقيادك وطاعتك وسلوكك من خلال أمره سبحانه.

5- **الثقة بإقبال العالم مستقبَلاً على الإسلام:** لأن الله سبحانه وتعالى بعد أن قال: { وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ } قال: { يَأْتُوكَ } وما قال: (لا يستجيبون)، إنما قال: { يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ } فالصورة في التفسير: يأتي الناس ماشين وركبانًا، أي بين ماشٍ راجلٍ وراكب، ورمزيتُها: إقبالُ العالم على الإسلام بين مَن يُقبل عليه مسرعًا ومَن يُقبل عليه إقبال الهوينى.

6- **اجتماع المنفعة المادّية مع المنفعة المعنوية في ثقافة الحجّ والثقافة الإسلامية عمومًا:** فحين قال سبحانه وتعالى: { لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ } فإنه فتح الباب أمام عملية تبادلٍ اقتصاديّ لا يكون الحاجّ فيها مستورِدًا فقط إنما يحصل تبادلٌ اقتصاديٌّ عالميّ يتبادل الناس فيه سلاحهم وبضائعهم، فيبيع كلٌّ منهم ويشتري إضافةً إلى ما يشهدون من المنافع المعنوية، وذلك حين يكون ذلك المكان حرًّا ومفتوحًا للتبادل بكل أصنافه وأنواعه: على المستوي المادّيِّ الثقافيّ والمعنويّ والحضاريّ والمعرفيّ في العلم والعمل، وفي الاقتصاد والاجتماع... وحينما يكون فرصة للحوار الجادّ الذي ينتفع المسلمون من خلاله.

7- **الاشتراك بالغذاء بسم الله:** وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثني على الأشعريّين لأنهم كانوا إذا أرملوا جمعوا، فكانوا يشتركون في الغذاء، فتنتفي ثقافة الأنانية وينتفي السلوك الفرديّ ليشترك الجميع في الغذاء.

وهكذا يقول سبحانه: { وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } فهو رزق عامّ يجتمعون عليه بسم الله، فيوحدهم اسمُ الله في الغذاء الواحد حينما ينحر الهدي، وحينما تنحر الأضاحي، وحينما يكون الطعام المشترك.

وهكذا يعمم النصّ القرآنيّ ويقول: { فَكُلُوا مِنْهَا } أي كلٌّ من حضر في وقت الحج.

{ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ } ليكون ذلك التجمع المنظَّم - ومن المفروض أن يكون منظَّمًا - فرصةً من أجل إطعام جياع العالم وبؤساء العالم، والطرائقُ الحديثة يمكن أن تجعل من الأضاحي والهدي فرصةً لإطعام جياع العالم، لأن حفظ الطعام ذاك وهو فائض عن حاجة الحجيج يمكن أن يسد المجاعات، ويمكن أن يغطي البؤس في كثير من بلاد العالم.

8- **ثقافة المدنية النظيفة:** التي عبر عنها قوله تعالى: { ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ } فالعرب تقول للذي تستقذره: ما أتفثك! أي: ما أوسخك وأقذرك!

فأصل التفث في اللغة الوسخ، فإذا كان الحاجّ لا يعتني فرصةَ أيامٍ معدودات إلا بغسله، لكنه بعد أن ينتهي من هذه الممارسة العباداتية فإنه ينطلق إلى مرحلة تمثل ثقافة الإسلام، يقول صلى الله عليه وسلم: **(إن الله نظيف يحب النظافة)**.

{ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ } من أجل أن يحملوا ثقافة النظافة إلى مدنهم ومجتمعاتهم وحيث يكونون، فمن المعيب أن يكون غيرُ العالم الإسلاميّ معتنيًا بالنظافة أكثر من عناية العالم الإسلاميّ، وهو يدل على تناقضنا مع ثقافة الحجّ هذه.

9- **نظافة الذمم:** فبعد أن تحدَّث عن نظافة الظاهر والبدن والصورة قال: { وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ } حتى يرجع الحاجّ نظيف الذمَّة، ليس في ذمته تلويث، ولا يبقى في ذمته من الحقوق شيء.

10- **التزود من المعاني الإبراهيمية مرارًا وتكرارًا:** لأن الله سبحانه وتعالى ربط البيت ومكان البيت بإبراهيم فقال: { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ } أي أنزلنا إبراهيم في مكان البيت، وهكذا صار ذلك المكان المحرَّم منسوبًا إلى إبراهيم.

وحين يقول الله سبحانه: { وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } فإنه يريد من المسلم أن يتزود من معاني البيت، وقال: { وَلْيَطَّوَّفُوا } وما قال: (وَلْيَطُوفُوا)، لأنه أراد أن يدخلك في سرّ البيت، وفي معاني البيت، الذي هو مقام إبراهيم: { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ } فيتزود من المعاني الإبراهيمية التي فيها التوحيد الخالص، وفيها الاستسلام لأمر الله، وهو الذي أُمر بذبح ولده فنفّذ، قال تعالى: { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } [البقرة: 124].

علينا بالتزوُّد لأن الله سبحانه وتعالى يقول: { قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا } يعني يا أمة الإسلام، ويا أمة محمد عليه الصلاة والسلام، { فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [آل عمران: 95]

وبعد هذه العناوين العشرة يتساءل المسلم، ويتساءل المثقف، ويتساءل المتأمل، ويتساءل الواعي...:

أين الحاج من هذه الثقافة؟!

وأين الذين يزعمون أنهم يقومون على خدمة الحجيج من هذه الثقافة؟!

وأين عالمنا الإسلاميّ من هذه الثقافة؟!

نحن نعيش تباينًا كبيرًا ولا ندرك من الحجّ إلا حجارته ورسومه وصوره، إلاَّ مَن رحم ربي، فواقعُ الحجّ يمثل واقع أمة الإسلام، وواقعُ أمة الإسلام ينعكس في الحجّ.

فالاضطهاد السياسيّ، والشتات الاجتماعيّ، والفوضى الاقتصادية، والفردية، والأنانية... الذي نراه في واقع المسلمين نراه في الحجّ، والذي نراه في الحجّ نراه في واقع المسلمين.

إن أيام الحجّ التي نعيشها اليوم تطلب منّا يا أمة الإسلام أن نعيد النظر في سلوكنا، وفي فهمنا، وفي صلة قلوبنا بالله... لأن واقعنا إذا لم يبكِ قلوبًا هي أقسى من الحجارة، فإنه يبكي الحجارة.

رُدَّنا اللهمَّ إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.